المعقِد الثَّاني عشر
ٱنتخاب الصُّحبة الصَّالحة له

فالإنسان مدنيٌّ بالطَّبع، واتِّخاذ الزَّميل ضرورةٌ لازمةٌ في نفوس الخلق، فيحتاج طالب العلم إلىٰ معاشرة غيره من الطُّلَّاب؛ لِتُعِينَه هٰذه المعاشرة علىٰ تحصيل العلم والاجتهاد في طلبه.

والزَّمالة في العلم إن سَلِمت من الغوائل نافعةٌ في الوصول إلىٰ المقصود.

ولا يَحسن بقاصد العلا إلَّا ٱنتخاب صحبةٍ صالحةٍ تُعينه؛ فإنَّ للخليل في خليله أثرًا.

قال أبو داود والتِّرمذيُّ ـ والسِّياق لأبي داود ـ: حدَّثنا ابن بشَّار، حدَّثنا أبو عامر وأبو داود، قالا: حدَّثنا زهير بن محمَّد، قال: حدَّثني موسىٰ بن وردان، عن أبي هريرة ﷺ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الرَّجل علىٰ دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالل**».

يقول الرَّاغب الأصفهانيُّ: «ليس إعداء الجليس لجليسه بمقاله وفعاله فقط، بل بالنَّظر إليه».

لا تـصـحـبِ الـكـسـلانَ فـي حـالاتـه
كـم صـالـحٍ بـفـسـادِ آخـرَ يَـفْـسُـدُ
عـدوىٰ الـبـلـيـدِ إلـىٰ الـجـلـيـدِ سـريـعـةٌ
كـالـجـمـرِ يـوضـعُ فـي الـرَّمـاد فـيـخْـمُـدُ

والجليد هو الجادُّ الحازم.

وإنَّما يُختار للصُّحبة من يُعاشِر للفضيلة لا للمنفعة ولا للَّذَّة؛ فإنَّ عقد المعاشرة يُبرم علىٰ هٰذه المطالب الثَّلاثة: الفضيلة والمنفعة واللَّذَّة ـ كما ذكره شيخ شيوخنا محمد الخضر بن حسين في «رسائل الإصلاح»، فانتخب صديق الفضيلة زميلًا؛ فإنَّك تُعْرَفُ به.

قال ابن مسعود ﷺ: «اعتبروا الرَّجلَ بمن يُصاحِب؛ فإنَّما يُصاحِب الرَّجل من هو مثله».

وأنشد أبو الفتح البُستيُّ لنفسه:

إذا مـا أصـطـنـعـت أمـراً فـلـيـكـن
شـريـف الـنِّـجـار زكـيَّ الـحَـسَـبْ
فـنـذل الـرِّجـال كـنـذل الـنَّـبـات
فـلا لـلـثِّـمـار ولا لـلـحـطـبْ

ويقول ابن مانعٍ ـ رحمه الله ـ في «إرشاد الطُّلَّاب» ـ وهو يوصي طالب العلم ـ:

«ويَحْذَر كلَّ الحذر من مخالطة السُّفهاء وأهلِ المجون والوقاحة وسيِّئي السُّمعة والأغبياء والبُلداء؛ فإنَّ مخالطتهم سبب الحرمان وشقاوة الإنسان».

وكأنَّ هٰذا عينُ قولِ سفيان بن عُيَيْنة: «إنِّي لأحرِم جلسائي الحديثَ الغريب لموضع رجلٍ واحدٍ ثقيلٍ».

فقد يُحرم المتعلِّم العلمَ لأجل صاحبه، فاحذر هٰذا الصِّنف ـ وإن تزيَّا بزَيِّ العلم ـ فإنَّه يُفسدك من حيث لا تُحِسُّ.

المعقِد الثَّالثَ عشرَ

بذل الجهد في تحفُّظِ العلم، والمذاكرة به، والسُّؤال عنه

إذ تلقِّيه عن الشُّيوخ لا ينفع بلا حفظٍ له، ومذاكرةٍ به، وسؤالٍ عنه؛ فهٰؤلاء تُحقِّق في قلب طالب العلم تعظيمَه؛ بكمال الالْتفات إليه والاشتغال به، فالحفظ خلوةٌ بالنَّفس، والمذاكرة جلوسٌ إلىٰ القرين، والسُّؤال إقبالٌ علىٰ العالم.

فبالحفظ يُقرَّرُ العلم في القلب، وينبغي أن يكون جُلُّ هِمَّة الطَّالب مصروفًا إلىٰ الحفظ والإعادة، كما يقوله ابن الجوزيِّ ـ رحمه الله ـ في «صيد خاطره».

ولم يزلِ العلماء الأعلام يحضُّون علىٰ الحفظ ويأمرون به.

قال عبيد الله بن الحسن: «وجدت أحضر العلم منفعةً: ما وعيتُه بقلبي ولُكْتُه بلساني».

وسمعت شيخنا ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ يقول: «حفظنا قليلًا وقرأنا كثيرًا، فانتفعنا بما حفظنا أكثرَ من ٱنتفاعنا بما قرأنا».

لـيـس بـعـلـمٍ مـا حـوىٰ الـقِـمَـطْـرُ
مـا الـعـلـمُ إلا مـا حـواه الـصَّـدرُ

والمتلمِّس للعلم لا يستغني عن الحفظ، ولا يجمُل به أن يُخليَ نفسه منه، وإذا قدِر علىٰ ما كان يصنع ابن الفرات ـ رحمه الله ـ فليأخذ به؛ فقد كان لا يترك كلَّ يومٍ إذا أصبح أن يحفظ شيئًا وإن قلَّ، ومن عقل هٰذا المعنىٰ لم يزل من الحفظ في ٱزدياد، فلا ينقطع عنه حتَّىٰ الموت، كما اتَّفق ذلك لابن مالك ـ رحمه الله ـ صاحبِ «الألفيَّة النَّحوية» فإنَّه حفظ في يوم موته خمسةَ شواهدَ.

وبالمذاكرة تدوم حياة العلم في النَّفس، ويقوىٰ تعلُّقه بها، والمراد بالمذاكرة مدارسة الأقران.

وقد أُمرنا بتعاهد القرآن الَّذي هو أيسر العلوم.

قال البخاريُّ ـ رحمه الله ـ: حدَّثنا عبد الله بن يوسف، قال: أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّما مَثَلُ صاحبِ القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلَة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت**».

ورواه مسلمٌ من حديث مالكٍ به نحوه.

قال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ في كتابه «التَّمهيد» عند هٰذا الحديث:

«وإذا كان القرآن الميسَّر للذِّكر كالإبل المعقَّلَةِ، من تَعَاهَدَها أمسكها، فكيف بسائر العلوم؟!»

وكان الزُّهريُّ ـ رحمه الله ـ يقول: «إنَّما يُذهِب العلمَ النِّسيانُ، وتركُ المذاكرة».

وبالسُّؤال عن العلم تُفتتحُ خزائنه.

قال الزُّهريُّ ـ رحمه الله ـ: «إنَّما هٰذا العلم خزائنُ، وتَفْتِحها المسألة».

وحُسْن المسألة نصف العلم، والسُّؤالات المصنَّفة ـ كمسائلِ أحمدَ المرويَّةِ عنه ـ برهانٌ جليٌّ علىٰ عظيم منفعة السُّؤال.

وقِلَّةُ الإقبال علىٰ العالم بالسُّؤال إذا ورد علىٰ بلدٍ، تَكْشِفُ مبلغَ العلم فيه، فهٰذا سفيان الثَّوريُّ ـ رحمه الله ـ يقدُم عسقلان فيمكث ثلاثًا لا يسأله إنسانٌ عن شيءٍ، فيقول لروَّادِ بنِ الجرَّاح ـ أحدِ أصحابه ـ: «اِكْتَرْ لي أخرجْ من هٰذا البلد، هٰذا بلدٌ يموت فيه العلم».

فمن لقي شيخًا فليغتنم لقاءَه بالسُّؤال عما يُشْكِلُ عليه ويَحتاج إليه، لا سؤالَ متعنِّتٍ ممتحنٍ.

وهٰذه المعاني الثَّلاثة للعلم: بمنزلة الغرس للشَّجر وسقيه وتنميته بما يحفظ قوَّته ويدفع آفته، فالحفظ غَرس العلم، والمذاكرة سقيه، والسُّؤال عنه تنميته.